

البنية العائلية في رواية : البطاقة السحرية
لـ "محمد ساري"

الأستاذة ليلي قاسمي

- جامعة الجزائر 2 -

تعتبر الشخصية أساسا مهما من أسس العمل الأدبي، والروائي على وجه الخصوص، إذ يصعب علينا تصوّر أحداث قصة أو رواية دون شخصيات تقوم بتلك الأحداث، وهذا ما يؤكد الناقد الفرنسي رولان بارت Roland Barthes، حيث يقول: "لا يمكننا أن نقول أن ثمة قصة واحدة في العالم دون شخصيات".¹

وانطلاقا مما سبق يمكننا فهم حرص النقد الأدبي، واهتمامه البالغ لمكون الشخصية الروائية لما تحتله من موقع مهم في كل الأعمال الإبداعية حيث يعتبرها "فليب هامون" "Phillipe Hamon" من نقاط الارتكاز التقليدية للنقد قديمه وحديثه، وللنظريات الأدبية.²

ومن هنا تباينت البحوث التطبيقية التي عالجت الشخصية الروائية، وتنوعت نظريات الباحثين والنقاد، وعرفت الحركة النقدية في هذا المجال تطورا ملموسا خاصة بعد ظهور حركة الشكلانيين الروس (1915م – 1930م) دون أن ننسى المجهودات الجبارة التي قدّمها لفيف من النقاد لصقل مختلف النظريات أمثال: رولان بارت، يوري لوتمان، فيليب هامون... ولكل واحد منهم رأيه الخاص، وطريقة تعامل مميزة مع هذا المكوّن الفعّال.

ويعتبر حسن بحراوي أن الشخصية هي "العنصر الوحيد الذي تتقاطع عنده كافة العناصر الشكلية الأخرى بما فيها الإحداثيات الزمانية والمكانية الضرورية لنمو الخطاب الروائي".³

وتعتبر نظرية "فليب هامون" في عنصر الشخصية الروائية من النظريات المهمة التي اكتسحت البحوث النقدية عموما، والدراسات العربية على وجه التحديد، التي لا تزال في حاجة ماسة إلى مصادر جوهرية لتطوير الخطابات

الأدبية، فقد ركز "هامون" في دراسته للشخصية على الناحية الوظيفية على مدار المتن الروائي حيث يقول: "تشمل الشخصية على المستوى الحكائي وظيفة البناء، يقوم النص بتشبيده، أكثر ممّا هي معيار مفروض من خارج النص".⁴ ومن خلال هذا القول نستنتج أن الشخصية علامة مهمة في خضم أحداث النص الروائي، حيث تتحقق معانيها من خلال علاقتها بجميع المكونات السردية الأخرى، ولا يتأكد حضورها إلاّ بعد قراءتها وإدراك أدوارها المسندة إليها، والوظائف التي تقوم بها، وعلاقة التأثير والتأثير بين الشخصيات الأخرى داخل النسيج الروائي. وكان لـ "فلاديمير بروب" "Vladimir propp" دور كبير في وضع نموذج أولي وقاعدي لتكوين نظرية سمائية سردية، من خلال كتابة "مورفولوجيا الحكاية"، فقد حدد فيه العناصر الأساسية المكونة للحكاية : Histoire، وهي ما اصطلح على تسميته "الفعل : Action". وأطلق عليه بروب مصطلح "وظيفة" "Fonction"، فقد اهتم بوظائف الشخصيات، وأهمل جميع تفاصيل مظاهرها وصفاتها، فقد ركّز على ما تفعله الشخصية، وقد حصرت هذه الوظائف في 31 وظيفة.

وقد أفاد غريماس "Grimas" من أبحاث "بروب" "propp" فحاولا معا تحديد هوية الشخصية في الحكاية بشكل عام خلال مجموع أفعالها دون غرض النظر عن العلاقة القائمة بينها وبين الشخصيات الأخرى.

ويعتبر النموذج العاملي "Modèle actantiel" الذي وضعه غريماس من القواعد الأساسية والضرورية لوصف الشخصيات وترتيبها في الحكاية، وقد ميّز بين قطبين أساسيين هما :

1. العوامل Actants : فواعل تقوم بإنجاز أفعالها، حيث تتخذ فيه الشخصية مفهوما شموليا مجردا تهتم بالأدوار، ولا تهتم بالذوات المنجزة لها.
2. الممثلون Acteurs : شخصيات تقوم بدورها في الحكاية تشارك مع غيرها في تحديد دور عاملي واحد، أو عدة ادوار عاملية.⁵

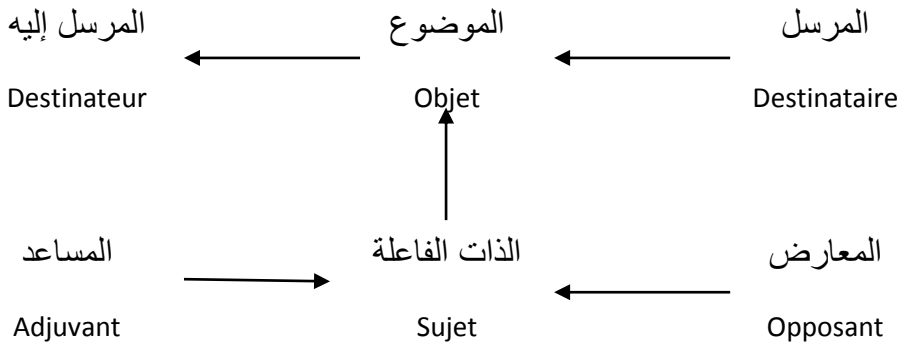
ويرتكز النموذج العاملي على أفعال الشخصيات، وينتظم داخل المسار السردى وفق نسق قائم على الثنائيات أو الأزواج :

الفاعل _____ الموضوع (محور الرغبة) axe de désir

المساعد _____ المعارض (محور القدرة) Axe de pouvoir

المرسل _____ المرسل إليه (محور الاتصال) Axe de communication

ويمكن تمثيل هذه البنية العاملية بالترسيمة السردية : " Schéma narratif " التالية :



ومن خلال هذه الترسيمة السردية نجد أن الذات الفاعلة ترغب في الاتصال بموضوع القيمة objet de valeur، الذي يشكل قاعديا الصراع بين ذات الفعل (الفاعل)، والذات المضادة (المعارض)، المتموقعتين داخل الحكى حيث يهيمن أحدهما في بداية السرد، بينما يهيمن الثاني في نهايته لكنهما يلتقيان في لحظة ما، أين تتم المواجهة بين الذوات في شكل سجالي أو تصالحي⁶.

كما تجدر الإشارة إلى أن الذات الفاعلة لغرض معين واتصالها بموضوع القيمة ينبغي أن يمر بأربعة مراحل أساسية :

1. مرحلة التحفيز (motivation)

2. توفر الكفاءة (compétence)

3. مرحلة الإنجاز (performance)

4. الحكم على الإنجاز (sanction)

وبعد هذه الوقفة النظرية البسيطة سنسعى إلى الاقتراب من المسار السردى Parcours Narratif واستنباط النية العاملة في رواية البطاقة السحرية⁷ لمحمد ساري. واستخراج البرامج السردية Programme Narratifs، باعتبارها مقطع منظّم، مكوّن من تعاقب المجالات والتحوّلات، ينشأ عنه تحوّل رئيسي من الاتصال Conjonction إلى الانفصال Diconjonction⁸، والبرنامج السردى مرتبط حدوثه بتحقيق مرحلة الإنجاز التي يتم فيها التحوّل⁹، لكن قبل ذلك سنسعى إلى تقديم ملخص وجيز عن الرواية.

ملخص رواية البطاقة السحرية لمحمد ساري :

تناقش الرواية قضية وطنية مهمة، وقد تناولها الروائي بطريقة روائية جريئة، وعبر عن الطابع العام لهواجس الرواية الجزائرية المتمثل في الثورة التحريرية، وعمّد فيها إلى كتابة تاريخ الجزائر المعاصر من خلال العودة إلى فترات تاريخية عرفتها الجزائر إبان الثورة التحريرية، تجري أحداث الرواية في قرية "عين الفكرون"، بطلها "مصطفى عمروش"، الذي يتصف بمجموعة من الصفات الكريمة: كالشرف والنبيل والإخلاص للوطن، والتنافي في العمل، والوفاء للثورة والثوار، يشغل منصب رئيس قسمة المجاهدين والشهداء، وفي المقابل نجد شخصية "أحمد تكوش" الملقب بالسارجان، انتهازي وصولي، يتميز بصفات الجشع والاستغلال، والعمل لحساب العدو، وضد مصالح الثورة، يملك من المال الكثير، ومن الجاه والسلطان ما يجعله أثري وأشهر شخص في القرية، يمثل السارجان قطب خونة الثورة، وعملاء فرنسا، حيث كان مكلف بالوشاية بالمجاهدين، وكشف مخططاتهم، وكان يرفض بيع المواد الغذائية للمقاومين، ولكن بعد الاستقلال يسعى إلى تحريف هذه الحقائق وتزييفها

حيث أصبح يقرّ بأنه خدم الثورة، وساعد الثوار لكن مصطفى عمروش، كان يعرف حقيقة هذا المراوغ جيدا.

أراد أحمد تكوش أو "السرجان" الحصول على بطاقة المجاهد (بطاقة الانخراط في الثورة التحريرية)، هذه البطاقة السحرية التي ستمنحه الكثير من الامتيازات، كالمجد والشرف حتى يصبح أكثر قدرا وشأنا، حيث يسعى على مدار النص كلّّه جاهدا للحصول عليها، متبعا في ذلك كل الوسائل والوسائط، لكن العقبة الوحيدة لتحقيق الغاية هي "مصطفى عمروش" الذي يرفض رفضا قاطعا هذه الميزة -كما يسميها- خائن ببساطة مجاهد، هذا ما لم يقبل به رغم كل المحاولات الترغيبية والترهييبية، لكن يظل مصطفى عمروش متمسكا بموقفه، ويبقى الصراع قائما بين الطرفين إلى أن تنتهي الرواية نهاية مأساوية، حيث يقوم مصطفى بقتل السارجان أمام مرأى من الناس ومسمعهم، ومع سابق الإصرار والترصد ويزج مصطفى في السجن.

تحديد البنية العالمية في الرواية :

يتأسس التركيب العالمي في البطاقة السحرية على عنصر الصراع القائم بين الأطراف الفاعلة في الأحداث، ولا يتسنى لنا فهم هذا الصراع إلا من خلال الأفعال التي تنجزها الشخصيات، والتي بدورها تمكننا من تحديد أوضاع القوى الفاعلة في النص وإدراك نمطية العلاقة الموجودة بين مختلف الأطراف المتفاعلة فيه من خلال استنباط البرامج السردية Programmes narratifs التي تقوم بها الشخصيات رغبة منها في التحول من وضع إلى آخر.

فبموجب هذا التحول تدرك استراتيجيات القوى المتصارعة المجسدة عن طريق البرامج السردية الرئيسية والملحقة، حيث تقودنا هذه العملية التحليلية إلى فهم الرهانات السميائية في الرواية، وضبط أدوارها الدلالية.

يقوم الفصل الأول: في رواية "البطاقة السحرية" على برنامج سردي للذات الفاعلة Sujet فيه السرجان، الذي يسعى إلى تحقيق مشروع الاتصال بموضوع القيمة Objet de valeur . المتمثل في الحصول على بطاقة الانخراط

في جيش التحرير الوطني، وللسرجان مجموعة أغراض thèmes تخوله للاتصال بموضوع القيمة (المال، المكانة الاجتماعية، الأصدقاء، الوساطة) فالرغبة موجودة، ومعرفة الفعل قائمة، لكن الدخول في وصلة "Conjonction". مع الموضوع يولد صراعا مع الذات الفاعلة الضديد" (Anti sujet) متمثلة في "مصطفى عمروش"، الذي يرفض توقيع البطاقة ومنحها له. ويمكن فهم هذه البنية العالمية، من خلال الترسيم السردية التالية :

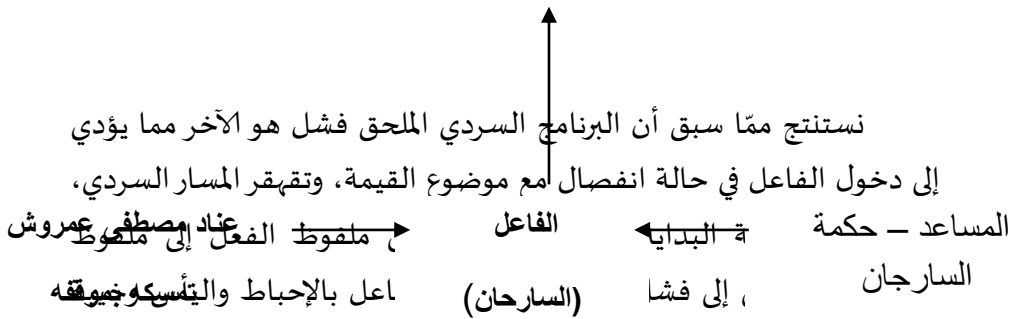
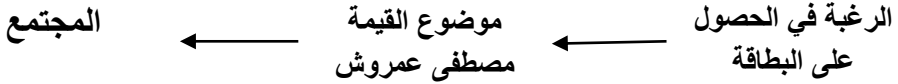
رفض المعارض (مصطفى عمروش) تحقيق رغبة الفاعل، يؤدي إلى فشل البرنامج وتأجيل تحقيقه وانجازه، مما يؤدي بالفاعل (السارجان) إلى إنجاز برنامج سردي ملحق programme narratif annexe أين يصبح المعارض أو الذات الفاعلة الضديد (مصطفى عمروش) موضوعا للقيمة، حيث يسعى "السارجان" إلى استمالاته ومحاولة إقناعه بأنه جدير بالحصول على البطاقة، حيث يسعى في ملفوظ الفعل Enoncé du faire إلى الانتقال إلى مرحلة الإنجاز، فيأخذ المسار السردى طريقه نحو التحول Transformation ووضع المخطط التالي :

1. اليوم الأول: استمالة مصطفى عمروش بالرفق واللين: "ولم يتفطن (مصطفى) إلى كلاصون سيارة متوقفة قرب الرصيف المقابل للشارع ... فتح الباب، وقف السارجان متكئا على سقف السيارة المغبر ونادى بأعلى صوته الجمهوري 'يا سي مطصفي، يا سي مصطفى) ... فبادره بالتحية مصطنعا ابتسامة مهادنة، ودعاه إلى جولة قصيرة في سيارته الفخمة، فإنقاد مصطفى

عمروش عن غير رغبة ... وطاف حول ذكريات الماضي البعيد، أيام الحر والجوع والتشرد الجماعي"10.

2. اليوم الثاني: محاولة استبعاده من منصبه، وإقناعه بالتقاعد، والتحول إلى التجارة: "اسمع يا سي مصطفى، لقد تقدمت في العمر، فلماذا لا تفكر في مستقبلك ومستقبل أولادك، فتطلب التقاعد، وتفتح لنفسك محلا تجاريا، يوفر عنك المتاعب وتعيش بقية حياتك سعيدا مستريحا"11.

3. اليوم الثالث: التصريح المباشر بالرغبة في الحصول على البطاقة، وعرض الرشوة: "أحتاج إلى إمضاءك كي أحصل على شهادة المشاركة في الثورة"12 "لا يكلفك الإمضاء شيئا، بل ستربح الكثير معي، فخيري كالبحر ... أنا مستعد للدفع، أطلب ما تريد وسأحضرها لك في الحين"13 وكانت ردة فعل مصطفى "قوية حيث "صعق مصطفى عمروش، وكاد يختنق غيظا"14. ويمكننا فهم هذه البنية العائلية من خلال الترسيم السردية التالية :



نستنتج مما سبق أن البرنامج السردى الملحق فشل هو الآخر مما يؤدي إلى دخول الفاعل في حالة انفصال مع موضوع القيمة، وتقهقر المسار السردى، المساعد - حكمة السارجان ، إلى فشا (السارجان) اعل بالإحباط والتيسر وخيوطه الأمل. مما يؤدي بالسرجان إلى استعمال وسائل أخرى للتعويض عن نفسه، واسترداد جزءا من عزته ويتضح ذلك من خلال هذا المقطع السردى: "سأخذ البطاقة بالمليح أو القبيح سأخذها رغم أنف مصطفى عمروش، الذي يحسب نفسه المجاهد الوحيد في هذه القرية ... كلنا ساعدنا الثورة، ماذا كان مصطفى هذا؟ حارسا للمغاور ولم يشارك في أية معركة، بل كان يعجن الخبز

مع زوجته ويحضران الأكل للمجاهدين الحقيقيين، كان مثل المرأة تماما، واليوم ينصب نفسه وصيا على الثورة"15.

نستنتج من خلال هذا الملفوظ السردي أن السارجان وبعد فشل برنامجيه الرئيسي والملحق، لا يجد إلا الانتقام من مصطفى عمروش محاولا تشويه سمعته، وتلطيف تاريخه الثوري، والتقليل من قيمته بأسلوب ساخر (حارسا للمغاور، يعجن الخبز، كان مثل المرأة تماما).

وعلى الرغم مما سبق يبدو أن السارجان لم يشف غليله بعد، بل يواصل في إلحاق الضرر بمن ساهم في تحطيم حلمه، وإفشال برنامجه فعمد إلى تشويه صورة الشهيدة حورية (زوجة مصطفى عمروش، التي التحقت بصفوف الثورة، وعملت كمرمضة). ربما تكون قد فقدت عذريتها معه قبل صعوده إلى الجبال ... وهل كانت زوجته وحده فقط..."16.

يعبر هذا المقطع السردي عن تحول مهم في مسار الأحداث، ويحدث خلخلة واضحة في السيرة الحديثة.

حيث يصبح ها الكلام القبيح محفزا قويا للتخطيط لبرنامج آخر، حيث يقرر مصطفى عمروش الدخول إلى اتصال بموضوع القيمة (المتمثل في قتل السارجان)، فالدافع المحفز متوفر، ومعرفة الفعل حاضرة عنده باعتباره رجل سلاح وثورة، والقدرة والرغبة في الفعل حاصلتان بشكل بديهي دون اللجوء إلى برامج سردية ملحق، بالنظر إلى الحالة النفسية السيئة التي اعترته بعدما سمع ذلك الكلام ونلمس ذلك من خلال هذا الملفوظ السردي : "في هذه اللحظة نزل الصمت على القاعة الواسعة كالصاعقة، وجمّد الزبائن في أماكنهم لا يحركون ساكنا، ولا ينطقون حرفا، ثم بعد التحقق من هوية القادم نحو المقهى، انتفض الجميع في صخب فوضوي بإزاحة الطاوات والزائر الخطير، كان مصطفى عمروش يتقدم في الشارع الرئيسي بخطى ثابتة

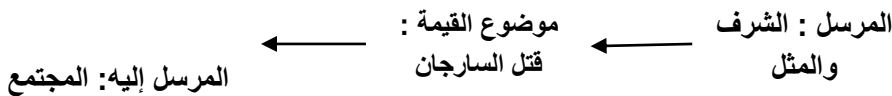
وقسمات صارمة معولة على فعل رهيب، مصوبا بصره الحاقد على ماسورة البندقية اللامعة."17

المتمعن في هذا المقطع السردي يجد نفسه أمام تنقلات سردية مهمة وكأننا بصدد مشاهدة صورة سينمائية حية تنم عن الجرأة والجديّة في الحدث حيث نجد:

- (1) نزل الصمت على القاعة الواسعة كالصاعقة
 - (2) جمد الزبائن في أماكنهم لا يحركون ساكنا
 - (3) انتفض الجميع في صخب فوضوي (بعد التأكد من شخصية مصطفى).
 - (4) قاصدين جميعا الباب الخارجي
- نلاحظ جيدا أن هذه الوصلات السردية تدل على حدة الموقف وهيبته، وتمهد لوقوع حدث مهم وجليل.

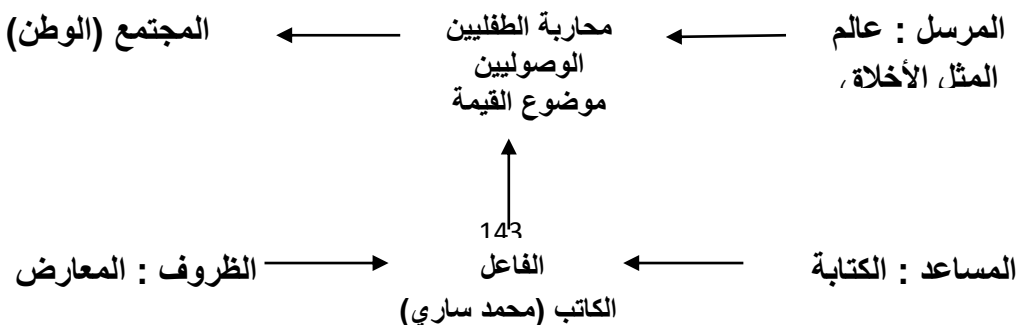
وهنا يكتسب الفاعل كل الشروط التي تجعل منه منجزا حقيقيا، حيث ينتقل من ملفوظ حالة إلى ملفوظ فعل بامتياز، وخاصة بعدما نسبت إليه صفات (الزائر الخطير، خطى ثابتة، قسمات صارمة معولة، البصر الحاقد) التي تصعد وتيرة الحدث، وتستفز الفعل وتحفره إلى أن يصل إلى مرحلة الإنجاز والدخول في وصلة مع موضوع القيمة (التمثل في قتل السارجان) وتحقيق البرنامج السردى، "تحركت سبابة اليد اليمنى لمصطفى ضاغطة على الزناد دون شفقة، فانطلقت الرصاصة الأولى مدوية، واستقرت في صدر السارجان الذي أطلق صيحة حادة، فأضاف له المنتقم رصاصة ثانية في الرقبة، حيث انفجر الدم المتوقف فوق البلاط...جثة تتخبط وسط الدم، أصدرت شخيرا بطيئا ثم فجأة همدت وانقطعت عن الحركة"18.

ويمكننا توضيح ما سبق بالترسيمة السردية التالية :



ومن خلال هذه الدارسة المتواضعة للبنية العائلية في رواية البطاقة السحرية نستنتج موقف الروائي من خونة الثورة، والرواية تأكيد على أن مقاومة الطفيليين الوصوليين والعملاء الذين يحاولون تشويه التاريخ وتحريفه لصالحهم لم تنته بعد، فالثورة لا تزال مستمرة وقائمة إلى زمن ما بعد الاستقلال لشزيمة المستعمرين الجدد المستفيدين من عدة امتيازات رغم خيانتهم قبل الاستقلال، وأن الحرب التحريرية الكبرى لم تكن سوى مشروع لم يكتمل إنجازها، وأن الطرف المهمش بعد الاستقلال هو المؤهل لاستكمال المشروع المستقبلي، وهذا ما نستشفه من خلال مقدمة الرواية المعنونة بـ "مفتاح الحلم"، حيث يؤكد الروائي "لسنوات طويلة ونحن نركض اتجاه أبواب مشعة حاملين باليوم الذي ستنتفتح فيه الأنوار والورود، خالدين فيها أبد الدهر، ويوم انفتحت، تحول الأفق المشع إلى عاصفة هوجاء جرفتنا بوحشية جنونية، أعادتنا إلى حيث كنا رفقة الوباء والجهل والظلمة الحالكة"¹⁹.

فالرواية مشروع سردي واضح يسعى فيه الروائي إلى تحقيق برنامج السردى المتمثل في محاربة الخونة. ويمكن تلخيص ما سبق من خلال الترسمة السردية التالية:



الهوامش:

- ¹ - Barthes (Roland) : *poétique du récit*, Editions du Seuil, 1977, P:33
- ² - Hamon (Phillipe) : *pour un statut sémiologique du personnage*, in *poétique du récit*, Editions, du seuil, Paris 1977, P:15.
- ³ - بحراوي (حسن): بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ص:20.
- ⁴ - Hamon (Phillipe) : *pour statut sémiologique du personnage*, P:98
- ⁵ - لحمداني (حميد) : بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3- 2000، ص: 52.
- ⁶ - رواينية (طاهر): سرديات الخطاب الروائي المغاربي الجديد، مقاربة نصائية، نظرية تطبيقية، في آليات المحكي الروائي. رسالة دكتوراه دولة، قسم اللغة العربية وآدابها 2000/1999، ص: 33.
- ⁷ - ساري (محمد) : البطاقة السحرية (رواية)، منشورات التبیین الجاحظية سلسلة الإبداع الأدبي، الجزائر: 2000.
- ⁸ - القاضي (محمد) في البنية القصصية ودلالاتها، تطبيق نظريات علم القصص على رواية الزلزال، الحياة الثقافية (تونس) ع 41، سنة 1985، ص: 18.
- ⁹ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁰ - الرواية، ص: 06
- ¹¹ - الرواية، ص: 09
- ¹² - الرواية، ص: 14
- ¹³ - الرواية، ص: 14
- ¹⁴ - الرواية، ص: 12
- ¹⁵ - الرواية، ص: 19
- ¹⁶ - الرواية، ص: 131
- ¹⁷ - الرواية، ص: 134
- ¹⁸ - الرواية، ص: 135.
- ¹⁹ - الرواية، ص: 03.